الشعر وتجليات الهوية الفلسطينية

بقلم يوسف سامي اليوسف

لكي يكتمل استيعاؤنا لأية حركة حية ذات تاريخ ينتشر فوق الزمان، لا بد لنا من تحقيبها، أي لابد من تحديد أطوارها التي هي مراحلها المتمايزة بعضها عن بعض. وهذا رأي قد يناسب كل ما هو حي، سواء أكان سياسة أم أدبا أو أيا كان. فمن شأن التحقيب أن يكشف عن الفروق بين أطوار الشيء المتحرك المتبدل. والفروق هي بيت القصيد دوماً، وذلك لأنها الصفات التي تؤلف البنية الداخلية لكل شيء مهما يك نوعه.

بدأ التأسيس الأول للشعر في فلسطين الحديثة على يد شاعر اسمه يوسف النبهاني. وهو من قرية إجزم الواقعة في قضاء حيفا، وقد ولد سنة 1849. وبعد أن درس في الجامع الأزهر، نشر ديوانا في بيروت سنة 1897 عنوانه «الطيبة الغراء في مدح سيد الأنبياء». وقد جاء فيه قوله:

نورك الكل والورى أجزاء

يا نبياً من جنده الأنبياء

روح هذا الوجود أنت، ولولاك

لدامت في غيبها الأشياء

يا رعى الله طيبة من رياض

طاب فيها الهوى وطاب الهواء

ومن الواضح أن هذه صوفية متقدمة، وتبشر ببداية جيدة، أو بولادة حقيقية للشعر. ولقد ساعد النبهاني في هذا التأسيس الأول للشعر في بلادنا شاعران آخران هما إبراهيم الدباغ المولود في يافا سنة 1851، وسعيد الكرمي، والد الشاعر عبد الكريم الكرمي. وقد ولد الأب سنة 1852 في طولكرم.

كما أسهم في هذا التأسيس خمسة شعراء آخرون هم علي الريماوي المولود في بيت ريما / رام الله، 1860، وسليم اليعقوبي المولود في اللد سنة 1880، وله ديوانان، هما «حسنات اليراع» و«النظرات السبع». وسليمان الناجي المولود في الرملة سنة 1882.واسعاف النشاشيبي المولود في القدس سنة 1882.ولقد درس في بيروت وهاجر إلى مصر في عام النكبة. ونشر ديواناً عنوانه «البستان». وهنالك شاعر ثامن من مواليد القرن التاسع عشر هو اسكندر الخوري البيتجالي المولود سنة 1890. وله عدة دواوين شعرية أهمها «آلام وآمال» لأنه يضم شعره الوطني.

وهذه الحقبة الأولى هي حقبة التمهيد للحياة الحديثة في بلادنا فلسطين. وفي غضونها لم تكن المعضلة الفلسطينية قد نشبت بعد. ولهذا، فقد كان الشعر فيها عاماً ومتعدد الموضوعات.

ومع صدور وعد بلفور في الثاني من تشرين الثاني سنة 1917 بدأت المعضلة الفلسطينية. وعندي أن صدور ذلك الوعد هو علامة انحطاط في تاريخ الغربيين الذين وضعوا أنفسهم

تحت تصرف الصهيونية دون أدنى شعور بالحياء. فما شاهد التاريخ أمة خدمت كائنات سواها كما خدم الغربيون أسيادهم اليهود.

وسرعان ما تصدى الشاعر وديع البستاني لوعد بلفور، وكذلك للصهيونية وحليفتها بريطانيا. والبستاني رجل لبناني كان يعيش في فلسطين. كما تصدى لتلك القوى الشريرة نفسها الشاعر اسكندر الخوري، المولود في بيت جالا سنة 1890، والذي كان بحق أول شاعر سياسي في فلسطين. واسكندر الخوري هذا قد مهد للحقبة السياسية في الشعر الفلسطيني، وهي التي سوف يرسخها، أو حتى يدشنها، ثلاثة شعراء رياديين بارزين، هم: إبراهيم طوقان(نابلس،1905_1941)، لكنه مرض ومات وهو في أوج العمر، ومطلق عبد الخالق (1907_1937) الذي ضربه القطار في حيفا فمات وهو في ميعة الصبا. وقد نشر له ديوان عنوانه «الرحيل»، بعد وفاته بسنة واحدة. وكان الشاعر الثالث عبد الرحيم محمود (عنبتا،1913_1948)، شهيد الشجرة الذي مات، مثل الشاعرين السابقين، وهو في أوج العمر.

ولقد مهد البستاني والخوري لتلك الحقبة الثانية، وذلك لأنهما قد اخترعا القصيدة السياسية التي لم تكن معروفة من قبل في بلادنا. أما مؤسسها الفعلي فهو إبراهيم طوقان، دون أدنى ريب. ففي سنة 1930 أعدم الانجليز ثلاثة من الثوار، فعمت المظاهرات جميع أرجاء فلسطين. كان ذلك يوم الثلاثاء، الموافق للسابع عشر من حزيران. وسمي ذلك اليوم باسم الثلاثاء الحمراء. وكتب طوقان قصيدة تحمل العنوان نفسه. وابتداء من هذه القصيدة صار في الميسور أن يقال بأن شعر المقاومة الفلسطينية قد نجح على نحو ملموس.

كما كتب طوقان قصيدة عنوانها «الشهيد»، وثانية عنوانها "الفدائي"، وثالثة عنوانها «غادة اشبيليا». ثم أنه قد رثى كاظم الحسيني، والد الشهيد عبد القادر الحسيني. وجاء في تلك المرثية قوله:

ماذا يرد الظلم عنك، أحسرة

أم زفرة، أم عبرة تترقرق؟

لا تلجأن إذا ظلمت لمنطق

فهناك أضيع ما يكون المنطق.

أما عبد الرحيم محمود الذي اشترك في ثورة 1936، والذي قال:

سأحمل روحي على راحتي

وألقي بها في مهاوي الردى

فقد بر بوعده واستشهد في الشجرة خلال شهر تموز، عام النكبة. ولكن أهم ما في أمره أنه قد تنبأ بسقوط فلسطين في أيدي الصهاينة، وذلك يوم جاء أحدا الأمراء العرب ليزور القدس، فألقى عبد الرحيم محمود قصيدة بهذه المناسبة جاء فيها قوله:

المسجد الأقصى، أجئت تزوره

أم جئت من قبل الضياع تودعه؟

حرم تباح لكل أوكع آبق

ولكل أفاق شريد، أربعه

وغداً، وما أدناه، لا يبقى سوى

دمع لنا يهمي وسن نقرعه.

ومما هو لافت للانتباه أن الشعر في فلسطين قبل النكبة قد كان محصورا في مربع صغير هذه هي أضلاعه: القدس نابلس، نابلس حيفا، حيفا يافا، يافا القدس. ولقد تأخر الجليل كثيراً. ولعل السبب أن بيئته زراعية أو ريفية ومدنه ضامرة، بل هي أقرب إلى البلدات منها إلى المدن. ولكن حين ظهر شعراء الجليل بعد النكبة (درويش، زيّاد، القاسم ..... إلخ) فقد استحال الشعر الفلسطيني إلى حركة عالمية مرموقة.

* * *

أخذ وضع الشعر يتغير ابتداء من مطالع الخمسينات. ففي الأرض المحتلة ظهر شاعران اثنان إثر عام النكبة، وهما توفيق زياد وعيسى لوباني اللذان ينتسبان إلى الناصرة عاصمة الجليل الاشم. وبعد فترة وجيزة ظهر شاعر ثالث هو راشد حسين (1936-1977). وقد مات في حريق غامض بشقته في نيويورك، وذلك بعد مضي عشرين سنة على اصدار ديوانه الأول في الناصرة وعنوانه " مع الفجر".

وفي غزة ظهر شاعران آخران هما معين بسيسو وهارون هاشم رشيد. وقد ولد الأول في سنة 1926, وتوفي في لندن سنة 1984. أما الثاني فقد ولد بعد الأول بسنة واحدة. وقد نشر ديوانه الأول، "مع الغرباء" سنة 1954.

وفي نابلس ظهرت المرأة الفلسطينية على مسرح الشعر لأول مرة في فلسطين. أما في الشتات فقد تابع الشعراء نشاطهم، ولا سيما في دمشق التي احتضنت كوكبة من شعراء فلسطين أسهمت أيما إسهام في تطوير ثقافتنا الفلسطينية ذات الخصوصية الوثيقة الصلة بالنكبة، أو بالهوية التي عطبتها النذالة الصهيونية والامبريالية. فههنا، في سواء الأصالة الدمشقية عاش أبو سلمى (عبد الكريم الكرمي) سنديانة فلسطين، وحامل الماهية الفلسطينية، بل حامل فلسطين صليبا على كتفيه. لقد كان أبرز الشعراء اللاجئين في ذلك الطور المبكر من أطوار النكبة.

وههنا يجدر بالمرء أن يذكر حسن البحيري، شاعر حيفا، المولود زهاء سنة 1920. وقد شارك في الثورة سنة 1936، ونشر قبل النكبة ثلاثة دواوين شعرية:

1- الأصائل والأسحار (1943)

2- أفراح الربيع (1944)

3- ابتسام الضحى (1946)

وقد صدرت هذه الدواوين الثلاثة في القاهرة. وهاجر البحيري إلى دمشق حيث عاش حتى سنة 1998. وأصدر بعد النكبة عشرة دواوين شعرية منها ديوان «حيفا في سواد العين».

يستطيع من تتبع حركة الشعر في فلسطين أن يلاحظ ما فحواه أن الفلسطينيين توقفوا عن نشر المجموعات الشعرية كلياً خلال السنوات الست الواقعة بين سنة 1946 وسنة 1952

تقريباً. وربما كانت النكبة نفسها هي السبب في توقف حركة نشر الدواوين الشعرية خلال تلك البرهة العصيبة.

ولكن النشر تجدد سنة 1952، وذلك يوم نشر معين بسيسو ديوانه الأول، وعنوانه«المعركة»، وكذلك يوم نشرت فدوى طوقان ديوانها الأول، وعنوانه «وحدي مع الأيام». وفي السنة التالية نشر أبو سلمى ديوانه الأول، وعنوانه «المتشرد»، كما نشر خليل زقطان ديواناُ عنوانه «صوت الجياع».

وبعد سنة أخرى (1954)، نشر محمد العدناني في بيروت ديوانه الأول، وعنوانه«اللهيب»، كما نشر عيسى لوباني في الناصرة، ديوانا عنوانه «أحلام حائر». ولعل هذا الديوان أن يكون أول ديوان صدر في فلسطين المحتلة بعد النكبة والتشتيت. ونشر توفيق صايغ في بيروت ديوانا هو" ثلاثون قصيدة". أما سنة 1955، فشهدت نشر ثلاثة دواوين: الأول ديوان إبراهيم طوقان الذي صدر لأول مرة بعد وفاته بأربعة عشر عاماً. والثاني ديوان لخالد نصرة عنوانه «أغاني الفجر»، والثالث ديوان «العيون الظماء للنور» ليوسف الخطيب، وقد صدر في دمشق، المهاد الأكبر لشعراء النكبة.

وفي صلب الحق أن يوسف الخطيب هو قامة فلسطينية باذخة من قامات الشعر العربي كله بعد الكارثة. ولعل عنصر الحنين إلى الوطن السليب أن يكون واحداً من العوامل اللبابية التي جعلت شعره مميزاً في تلك الحقبة الباكرة من أحقاب النكبة. ويلوح لي أن الحنين هو العنصر الجوهري الصانع للهوية الفلسطينية في ذلك الزمان. لقد صار الشوق إلى الوطن المغتصب هو السمة الأولى للشخصية الفلسطينية يومئذ. ففي الديوان الأول للخطيب تراه يخاطب عندليبا مهاجرا بقوله:

لو قشة مما يرف ببيدر البلد خبأتها بين الجناح وخفقة الكبد.

كما نشر برهان الدين العبوشي أول ديوان له، وعنوانه «جبل النار» وذلك في بغداد سنة 1956. والعبوشي من مواليد جنين سنة 1911. وكان من أنصار القسام، فاعتقله الانكليز ونفوه الى بغداد حيث اشترك بثورة رشيد عالي الكيلاني سنة 1941، وجرح في إحدى المعارك إلى الغرب من بغداد. ثم عاد إلى فلسطين سراً، واشترك في القتال عام النكبة، وجرح جرحا بليغا في كتفه ولكنه نزح إلى بغداد حيث اشتغل مدرساً للغة العربية. وقضى بقية عمره هناك.

أما محمود سليم الحوت المولود في يافا سنة 1916، فقد تجول كثيرا بعد عام النكبة، ولكنه استقر أخيرا في الولايات المتحدة وأهم ما في أمره أنه نشر " ملحمة شعرية " سنة 1951. كما نشر ديواناً عنوانه "اللهب الكافر" وذلك في بيروت سنة 1963. ويتميز شعره بالغضب الناري يصبه على رؤوس المسؤولين عن الكارثة التي حلت بالشعب الفلسطيني

ولعل في الميسور أن يقال بأن الفترة الواقعة بين سنة 1952 وسنة 1956 هي برهة تجديد الشعر الفلسطيني، أو ولادته الثانية بعدما توقف نشر الدواوين الشعرية إثر عام النكبة. ولقد كان أبو سلمى ويوسف الخطيب أبرز شاعرين فلسطينيين في الخمسينات. ولقب أبو سلمى شاعر النكبة كما لقب بلقب آخر، وهو سنديانة فلسطين. ولقد تميز شعره بثلاث مزايا:

1- الاهتمام بالطبيعة.

2- الاهتمام بالمرأة والغزل.

3- الاهتمام بالبديع والصور الفنية.

ومما هو جدير بالذكر أن شاعراً فلسطينياً مهماً أخذ يبرز في دمشق خلال الستينات. إنه الشاعر فواز عيد (1938-1999). وحين نشر مجموعة شعرية عنوانها «في شمسي دوار»، وذلك في بيروت سنة 1965، فقد صار شاعراً شديد الأهمية يومئذ. ولكن قامته الشعرية قد ترسخت تماما يوم نشر " أعناق الجياد النافرة "، في بيروت سنة 1969. ولقد أسهم ذلك الشاعر مع محمود درويش وتوفيق زياد وسميح القاسم في تدشين الحداثة الشعرية الفلسطينية.

وفي الحق أن توفيق زّياد كان الرائد الحقيقي للشعر الفلسطيني الحديث، وإسهامه في تدشين الحداثة الشعرية الفلسطينية، أكبر من إسهام أي شاعر آخر، دون أن استثني درويش ففي سنة 1965 حصراً نشر قصيدة عنوانها «هنا باقون» ليستهل ولادة المرحلة الغنائية من مراحل الشعر المقاوم. وفي تلك السنة نفسها ظهرت قصيدته الرائعة «رجوعيات»، وكذلك «السكر المر» و «نار المجوس» و «على جذع زيتونة». والغريب حقاً أن جميع القصائد الجيدة التي كتبها ذلك الشاعر قد أنجزت سنة 1965 وحدها. ولقد كدس الكثير من الشعر خلال الخمسينيات ولكنه شعر لا يصلح لإنتاج المتعة الأدبية. كما أن سميح القاسم قد نشر في ذلك العام نفسه قصيدة جيدة عنوانها «إرم». ولست أبالغ إذا ما زعمت بأن سنة 1965 هي سنة انعطافية في تاريخ الثقافة الفلسطينية.

* * *

إثر النكبة أخذت المرأة الفلسطينية تساهم في انتاج الشعر، فظهرت فدوى طوقان التي كانت سباقة في هذا المضمار. وجاءت مجموعتها الأولى، «وحدي مع الأيام»، سنة 1952، لتساهم مع شعراء آخرين في انطلاق الشعر الفلسطيني بعد النكبة ولكن شعرها المبكر قد راح يدور حول موضوعتين كبريين: مكابدتها لآلامها الذاتية، وشعورها الوجودي باللاجدوى. وربما جاز الزعم بأن هاتين الموضوعتين هما موضوعة واحدة تلخصها عبارة وصف الأنا في حصار الوجود. وفضلاً عن ذلك فقد أبدت اهتماماً ناصعاً بالاغتراب الذي ينطوي على فحوى خلاصته أن كل شيء نافل، بل باطل. وربما كان أثر علي محمود طه وجماعة أبولو حاضراً تماماً في شعر فدوى، من الناحية الشكلية. كما أن علاقتها بالطبيعة شبيهه بعلاقة الشعراء الرومانسيين العرب المحدثين.

بيد أن أول ما يميز تلك الشاعرة هو التساؤل القلق. فهي كثيراً ما تطرح أسئلة وجودية تنطوي على توتر وهمّ ذاتي عميق. أما أسلوبها فناعم وبسيط وسائغ، مع أنه لا ينم على أي عمق، ولا على أي توظيف خاص للغة. ولعل في الميسور أن ألخص شعر فدوى بأنه شعر الاغتراب والعزلة والقلق واليأس والاضطرابات النفسية، فلقد عّبرت عن مأساتها الفردية الخاصة وبؤسها الشخصي وعزلتها وغربتها في عالم قاس كالفولاذ. ومع ذلك فقد صنعت أسلوباً ذا لغة سلسة وبغير تعقيد، ومن شأنها أن تناسب امرأة رقيقة الوجدان. ومع أن رعشة الموت تحتل مكانة مركزية في شعرها، فإن أسلوبها الناعم قد ظل تقليدياً لا جديد فيه. فهو أسلوب فقير إلى الصور الفنية الخاطفة ذات الانزياح الأخّاذ والدالة على الموهبة الاستثنائية أو على الخيال المتأجج العظيم.

وللحق أن سلمى الخضرا الجيوسي أقرب إلى روح الشعر من فدوى طوقان، كما أن قدرتها على التعامل مع الشكل الفني هي قدرة نادرة في هذا الطور التاريخي الجديد، فمن خصائصها أنها تطور تفاصيل المحتوى بالتدريج، مما جعل من القصيدة كياناً حياً يشبه نبتة تنمو نمواً

طبيعياً أو على مهل. فهي تنسج صوراً فنية لا يقوى على استحداث مثلها إلا فنان. ولهذا، يجوز القول بأن أسلوبها التفصيلي شعري أو موح بكل ما في الكلمة من المعنى. ولعل في الميسور أن أزعم بأنها أدخلت النزعة الغنائية إلى الشعر الفلسطيني الحديث، وهي النزعة التي سوف يرثها توفيق زياد ومحمود درويش.

ويوم نشرت مجموعتها الأولى تحت هذا العنوان، «العودة من النبع الحالم»، وذلك في بيروت سنة 1960، فإنها قد لفتت الانتباه وصارت مرموقة في الأوساط الثقافية. ويلوح لي أن العامل الأول في جعل تلك المجموعة عملاً شعرياً ذا جاذبية وقدرة على الخلب هو صفاء الأسلوب ولطافة الشكل الفني ونجاته من العكورة والاختلاط، فضلاً عن أنها تعمد إلى أسلوب هادئ وشديد البعد عن التوتر والضجيج.

* * *

وعلى أية حال، لئن كان يوسف النبهاني قد أنجز التأسيس الأول للشعر الفلسطيني، وذلك في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، ولئن كان إبراهيم طوقان قد أنجز التأسيس الثاني، وذلك في ثلاثينيات القرن العشرين، فإن مجموعة من الشعراء قد أنجزت التأسيس الثالث في أواسط الستينات من القرن نفسه، ولا سيما سنة 1965، يوم كتب توفيق زياد عدة قصائد غنائية لم يعرف الشعر الفلسطيني لها مثيلاً من قبل، وكذلك سنة 1968، يوم نشر محمود درويش مجموعة شعرية بارزة عنوانها «آخر الليل». وتتميز هذه المجموعة بأنها تتفجع برزانة وعمق. ولهذا، فأنني أصف نزعتها الغنائية بأنها فجائعية تتألم دون صخب، أو بعيداً عن النزعة الخطابية التي ألفها الشعر الفلسطيني من قبل.

إذن، مر الشعر الفلسطيني بثلاث أحقاب متباينة، وهي: (1) حقبة الشعر العام، و (2) حقبة الشعر السياسي، و (3) حقبة الشعر الحديث. ولكل مرحلة مزاياها وخصائصها. وقد مرت المرحلة الثالثة بفترة غنائية دامت بضع سنوات، ولكنها سرعان ما تلاشت في حداثة تهويمية تصب همها الأول على الشكل وليس على الشعور.

وقد يحالفني السداد إذا ما زعمت بأن الشعر الفلسطيني في السنوات المائة الأخيرة هو في الغالب الأعم نتاج ضحل لا يتمتع بالأصالة التي هي المجيء من الأعماق، أقصد أعماق النفس وأعماق الوجود. كما أن لديّ رغبة في الزعم بأن الشعر العربي، منذ محمود سامي البارودي واحمد شوقي، وحتى يوم الناس هذا، هو شيء يفتقر إلى الفذاذة والجودة العالية. ولا أحسبني أبالغ إذا ما زعمت بأن معظم النتاج الأدبي في عالم القرن العشرين ذي اللون الفاهي لا يتمتع بالكثير من المزايا الصانعة للقيمة الجلى. ولكن هذا الحال لا ينفى ما فحواة أن الفلسطينيين. قد أنتجوا الكثير من الشعر، وربما أنتجوا منه كمية تبذ أية كمية أخرى أنتجها أي شعب صغير العدد كالشعب الفلسطيني.

وبودي أن أقول شيئاً خاصاً بمحمود درويش الذي طبقت شهرته الآفاق حتى صار شخصية عالمية اخترقت الجدار القومي إلى سعة الانديا‌ح الكوني. فأنا أخشى أن يصيبه ما أصاب أحمد شوقي الذي بجّله عصره ونسيته الأجيال اللاحقة. فثمة من النذر ما يؤشر إلى الانحسار وتقلص الظل. ولكنني آمل أن تتمكن الأطوار القادمة من أن تنتج شاعراً يملك أن يحمل فلسطين صليباً على كتفيه يعذبه ما دام على قيد الحياة. ففي الحق أن محمود درويش قد غاص في التهويم حتى أذنيه. والمطلوب شاعر يعني بما هو صلب وتجريبي حقاً أو بما هو عيني أو ملموس، وذلك لأن الواقع أكثر تأثيراً في النفس من التهويمي الأجرد.

ويلوح لي أن الشعر، وليس أي ضرب آخر من ضروب الإبداع الأدبي والفني، هو ما سوف يظل المعبر الأول والأكبر عن الهوية الفلسطينية التي سوف تواظب على متابعة الكفاح الوطني الصدامي أو الدموي إلى أن تسترد الوطن، أو جميع ترابه كاملاً غير منقوص، على الرغم من اتفاقية أوسلو الخيانية الحقيرة، والتي تمثل جانبنا الخائر المناقض لجانبنا الثائر.

وبإيجاز، إن هويتنا تتحدد بالرصاصة أولاً وبالكلمة الشعرية ثانياً، وسوف نظل كذلك «حتى تعود إلى ذويها الدار»، على حد عبارة شاعرنا الكبير، يوسف الخطيب.